الاسلام السياسي
قاطرة التغيير والتحول في العالم

أ.د. محمد مورو

مفكر وباحث إسلامي من مصر

مقدمة

إنّ الحاجة إلى المشروع الحضاري الإسلامي أصبحت حالة ملحة على الصعيدين العالمي والإسلامي، بل قل إن مستقبل البشرية عموماً ومستقبل العالم الإسلامي خصوصاً، أصبح مرتبطاً بهذا المشروع أرتباطاً شديداً بل حيوياً.

ففي عالم يسوده الظلم والعنصرية والنهب والقهر والعنف والتطهير العرقي، واضطهاد الأقليات، في عالم المنفعة اللاأخلاقية التي أدت إلى إفساد البيئة والحياة فوق بركان نووي وذري، في عالم يموت فيه سنوياً (50) مليوناً بسبب الجوع منهم (15) مليون طفل، في عالم يستأثر فيه (20%) من السكان بخيراته على حساب (80%) من هؤلاء السكان، في عالم الاغتراب بسبب سيطرة الآلة وحالات الانتحار حتى في البلاد الغنية نفسها عالم الاكتئاب واللامعقول والإسفاف وقهر الإنسان.

في هذا العالم تبدو الحاجة إلى مشروع حضاري يؤكد قيمة الإنسان، ويتعامل مع الكون والطبيعة من منطلق الصداقة والتناغم والانسجام، وليس الصراع والسيطرة والمنفعة اللاأخلاقية. مشروع حضاري يؤكد المحافظة على البيئة وربط الإنتاج بحاجة الإنسان دون إخلال بالتوازن البيولوجي أو الاجتماعي. مشروع حضاري

يؤكد اللاعنصرية والعدل والحرية والمساواة والمسؤولية الأخلاقية والاجتماعية عن الفقراء والمستضعفين، عالم بلا فقر ولا مجاعة ولا ازدواج معايير، عالم بلا أضطهاد للأقليات، أو ممارسة التطهير العرقي، عالم التعاون بين البشر وليس نهب بعضهم لحساب البعض الآخر، عالم بلا استبداد وبلا قهر وبلا عنف، وهذا كله لا يتوافر إلا في القيم الحضارية الإسلامية التي أثبتت سموها على المستوى النظري والمذهبي، وعلى المستوى التطبيقي، الأمر الذي يفتقده كل المنظومات الحضارية الأخرى، ولاسيما المنظومة الحضارية الغربية التي عانى العالم الكثير بسببها وما زال يعاني.

وعلى المستوى الإسلامي فإن الحاجة إلى المشروع الحضاري الإسلامي أكثر حيوية، لأن العالم الإسلامي هو الذي سوف يحمل تلك القيم الحضارية إلى العالم، ولأن العالم الإسلامي في مجمله خاضع للقهر والنهب والاستبداد بسبب الحضارة الغربية، ومن ثم فإن المشروع الحضاري الإسلامي هو وحده الطريق لهذا العالم الإسلامي نحو التحرر والتنمية والإنعتاق والنهضة، ولا شك في أن فشل مشروعات النهضة التي استندت إلى القيم الغربية في العالم الإسلامي، تؤكد بدورها أن المشروع الحضاري الإسلامي، هو وحده القادر على حشد الجماهير وانتزاع طريق السيادة الحضارية والنهضة والتنمية، وحل كل المشكلات والتحديات التي يعاني منها أو يواجهها العالم الإسلامي.

وهكذا يأتي المشروع الحضاري الإسلامي على مستويين: المستوى العالمي وهو المستوى الذي علينا أن نقدم من خلاله إلى العالم، طريقاً جديداً مثيراً للخروج من مأزق العالم المعاصر ومآسيه وظلماته، وهو المستوى الذي يتضمن تأكيد قيم الحرية، والعدل، واللاعنصرية، وعدم ازدواج المعايير والمحافظة على البيئة والتناغم معها، والمسؤولية عن المستقبل ونصرة الفقراء والمستضعفين، وحماية الأقليات ووحدة المصير الإنساني وغيرها من القيم الحضارية الإسلامية.

والمستوى الإسلامي، وهو المستوى المرتبط باستنهاض همم المسلمين نحو التوحيد والوحدة والجهاد وبناء نمط من التنمية مستقل وغير تابع، الأمر الذي يشكل البداية على طريق التحرر من الاستعمار والهيمنة الغربية، وتحقيق النهضة والتقدم والانعتاق ومن ثم يأتي بعد ذلك حمل القيم الحضارية الإسلامية للعالم بأسره.

أولاً: النظام الصالح

سؤال الإنسانية الدائم: ما هو النظام الذي يصلح لها وتسعد به، ويحقق لها حياة مستقرة هانئة... وبديهي أن إجابة السؤال بالنسبة إلى المؤمنين بالله... هو أن الله هو الذي خلق الإنسان، ويعلم ما يصلحه وما يفسده، ومن ثم فإن القواعد التي

وضحها الله تعالى وأرشد بها الإنسان، هي التي تحقق ذلك الهدف. وبما أن الإسلام هو دين الله الحق، وبما أن الرسول ﷺ هو النبي الخاتم، فإن النظام الإسلامي وحده هو الذي يحقق ذلك، ولكن هذا ليس حلاً نهائياً، فالنظام الإسلامي يطبقه بشر، وثم فإن ارتفاع مستوى هذا البشر إلى مستوى النظرية هو شرط تحقيق ذلك، وهذه الشرط بدوره موجودة في كل النظم، فالنظم كلها يطبقها بشر، ومن ثم فإن من الممكن أن يحسنوا التطبيق أو لا يحسنوه، سواء كان النظام المطبق رباني أو وضعي، ونخلص من هذا أن النظام الوضعي والنظام الرباني يتساويان في شرط التطبيق، ولكن للنظام الرباني فضل لا شك فيه بالنسبة للنظرية.

من زاوية أخرى فإن الخبرات البشرية نفسها ومن خلال تجارب وقعت في التاريخ القديم والحديث والمعاصر، تقول أن النظم الوضعية فشلت في الأمرين معاً، في النظرية والتطبيق على حد سواء، بل لقد عانت البشرية معاناة هائلة بسبب تطبيق النظم الكسروية والهرقلية، بل الديمقراطية والاشتراكية والفاشية والنازية منها حدثت إبادة لشعوب الأميركيتين وأستراليا، وحدثت مذابح في معظم أرجاء العالم نفذها الرجل الأبيض، ونشأت الصهيونية ثم دوله إسرائيل، وهى حاله تجسيم للظم على مستوي اغتصاب حقوق شعب وأرض، وعلى مستوي انتهاك حقوق الإنسان بصورة يومية وعلى مدار الساعة،ولعشرات من السنين تحت سمع العالم وبصره، والديمقراطية هي التي استخدمت القنبلة الذرية في الحرب العالمية الثانية، وهي التي مارست نهب العالم، ولا تزال قوات الدول الديمقراطية تنتهك سيادة الشعوب في العراق وأفغانستان وفلسطين...إلخ، أضف إلى ذلك إفساد البيئة واستنزاف ثروات الأرض...إلخ.

في هذا العالم تبدو الحاجة إلى مشروع حضاري يؤكد قيمة الإنسان، ويتعامل مع الكون والطبيعة من منطلق الصداقة والتناغم والانسجام، وليس الصراع والسيطرة والمنفعة اللاأخلاقية

ففي ظل تلك الأنظمة وبالذات الديمقراطية منها حدثت إبادة لشعوب الأميركيتين وأستراليا، وحدثت مذابح في معظم أرجاء العالم نفذها الرجل الأبيض، ونشأت الصهيونية ثم دوله إسرائيل

والمحصلة أن هناك شقاء لا شك فيه ترتب على تطبيق تلك النظم، شقاء جماعي... أما في التطبيق الإسلامي فإن المسألة مختلفة، صحيح أنه هناك تجاوزات، ولكنها تجاوزات فردية لا ترقى إلى تشكيل ظاهرة، وهي مرفوضة طبعاً، أي إننا لو قارنَّا بين مستوي السعادة في ظل الحضارة الإسلامية ومستواها في الحضارات الأخرى، وخاصة الغربية نجد أنه لصالح الحضارة الإسلامية بامتياز، ونحن هنا نتكلم عن الظاهرة في مجراها الرئيس، أو في المحصلة النهائية، ونكرر أن هناك استثناءات ولكنها لا تخرق القاعدة، هناك

استثناءات إيجابية في الحضارات الأخرى، وهناك استثناءات سلبية في التطبيق الحضاري الإسلامي، ولكن تظل القاعدة هي نفسها، وبديهي أن النظام الإسلامي به من الأتساع والمرونة ما يسمح بالاستفادة أيضاً من الخبرات الإيجابية للتجارب الأخرى، وهذا لايخالف الشرع الحنيف، بل هو فريضة أوجبتها الشريعة الإسلامية ذاتها، فالحكمة ضالة المؤمن أن وجدها فهو أحق بها.

الحرية في المنهج الإسلامي غاية ووسيلة في الوقت نفسه، فلا إيمان من دون حرية، ولا إكراه على الإيمان، ولا إكراه أيضاً على الكفر

الحديث عن الحرية في الإسلام، وحرية التعبير، ليس حديثاً عن النظام السياسي الإسلامي فقط، بل هو حديث يتصل بمنهج الإسلام ذاته، لأن الحرية في المنهج الإسلامي غاية ووسيلة في الوقت نفسه، فلا إيمان من دون حرية، ولا إكراه على الإيمان، ولا إكراه أيضاً على الكفر، وبالنسبة لنا نحن المسلمين، فأننا نؤمن أن الإسلام في فطرة الناس، إذن لو تنافس الناس بحرية، لو لم يكن هناك قهر ولا تعسف، لو لم يكن هناك تعصب مسبق لأيّ شيء لأصبح الإيمان سهل جداً، ولعل هذا واجب أمة الإسلام، واجبها القضاء على الاستبداد السياسي والظلم الاقتصادي والتعصب، وإعطاء الناس حرية الاختيار، وفي تلك الحالة فإن الناس تختار الإسلام لأنه دين الفطرة، وحتى لو لم يختاروه فهم أحرار، إذ لا إكراه في الدين، المهم أن أحد مهام الأمة الإسلامية هو تحقيق حرية الاختيار وإزالة كل العوائق التي تحول دون ذلك، ومن نافلة القول أن الجهاد في الإسلام في أحد أهدافه هو إزالة الأنظمة الاستبدادية التي تقهر الناس على الكفر، وتحقيق حرية الدعوة، فإذا تحققت حرية الدعوة بدون عقبات فلا داعي أصلاً للقتال.

وهكذا فالحرية هي في صميم المنهج الإسلامي، من ناحية إقامة الحجة على الناس بتحقيق حرية الاختيار، حتى يختار الناس الإسلام أو الكفر بحرية، وحتى يتناقشوا ويتحاوروا بدون ضغوط.

الحرية أيضاً، ومن ثم حرية التعبير والتفكير تظهر في تصور الإسلام للإنسان، استخلافه في الأرض، ودورة فيها، حملة للأمانة ثم وجود نوازع للخير وللشر في نفسه، وهكذا فإن ذلك لا يتسق مع بعضه البعض، من دون أن يكون ذلك الإنسان حراً، فلا معنى لأن يكون الإنسان خليفة مسؤول مكلف، من دون هذه الحرية بكل أنواعها، على أن من المهم هنا أن نحدد أن الإنسان يتكون من كيان مادي وروح وعقل، والروح خارج إطار فهمنا، والكيان المادي خاضع لقوانين وسنن

المادة التي جعلها الله عليها.

ويبقى أن الحرية منوطة بالعقل الذي يتميز به الإنسان على سائر المخلوقات، فالإنسان مسير فيما يخص الجزء المادي من تكوينه، ولكنه مخير فيما هو متاح له من خير أو شر، «ضمن مشيئة الله الكلية طبعاً»، ويختار بين الخير والشر بعقلة، ومن ثم فلا مسؤولية على المجنون أو الصغير أو المكره، وهو مسئول عن اختياره ويحاسب عليه يوم القيامة، فضلاً عن وجود الجزاء الدنيوي.وهكذا فالحرية هنا شرط لازم لتكليف الإنسان وحملة للأمانة ومسؤوليته عن أعماله وأقواله.

وإذا كان ذلك شأن الإنسان حسب التصور الإسلامي، فإن النظام الإسلامي ككل يؤكد ويساعد ويحقق تلك الحرية، فنظام الشورى في الإسلام يحقق أوسع مناطق تلك الحرية، وكذا فإن النظام الاجتماعي الإسلامي يحقق الإشباع المادي لكل إنسان، حتى لا تكون الحاجة حائلاً دون حرية التفكير والتدبير، بما فيه تحقيق للعدل، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، النقد والنقد الذاتي، طلب العلم كلها تحقيق تلك الحرية، فالعلم مثلاً يزيد مساحة الوعي ومن ثم القدرة على حرية التعبير، والعدل يجعل الإنسان آمناً إذا عبر عن رأيه، والنقد والنقد الذاتي هو في صميمه نوع من حرية الرأي، واعتبار ذلك واجب على المسلم تجاه الإمام، وتجاه المجتمع وتجاه أخيه المسلم.

النظام الاجتماعي الإسلامي يحقق الإشباع المادي لكل إنسان، حتى لا تكون الحاجة حائلاً دون حرية التفكير والتدبير، بما فيه تحقيق للعدل

والنظام الأخلاقي الإسلامي الذي يمنع شرب الخمر والزنا والشذوذ ولعب الميسر... الخ، كلها تقوي الإنسان والمجتمع على أداء واجب حرية التعبير، بل حتى العبادات المباشرة، كالصلاة هي نوع من الطاعة لله أولاً، ثم لتحقيق أهداف قوة النفس والبدن، وعدم الخوف إلا من الله، ومن ثم القدرة على إبداء الرأي دون خوف، وشهادة أن لا إله إلا الله، ومن ثم الشجاعة في قول الحق والصيام، فمن لم يدع قول الزور والعمل به، أي في المقابل أن يصر على قول الحق والعمل به، فلا حاجة لله في أن يدع طعامه وشرابه، والحج مثلاً هو إجتماع لتبادل الرأي بين المسلمين كل عام، والزكاة هي نظام اجتماعي تحقق رفع الفقر والبطالة عن المجتمع، ومن

ثم يصبح غير خاضع في رأيه إلا للحق، وليس لصاحب المال أو السلطان...إلخ.

هناك أيضاً محطات ومواقف كلها تدل على الحرية عموماً وحرية التعبير خصوصاً، وهناك وثائق تاريخية مثل وثيقة المدينة، أو خطب الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين وغيرها تشكل علامات مضيئة في تاريخ الحضارة الإسلامية وكلها تؤكد على حرية الرأي.

على أننا يجب أن نعترف بأن أحوال المسلمين ليست على ما يرام، وأنه غاب عنهم الكثير من تلك القيم، وأن من الواجب عليهم استعادتها ليس من أجل أنفسهم فقط، فلن يتقدموا إلا بها، ولكن أيضاً من أجل تقديم أنموذج حي للشعوب الأخرى، وتقديم بديل حضاري رائع للنظم السائدة حالياً في العالم، والتي جلبت الشقاء للإنسان، وإذا استمرت يمكن أن تقود البشرية إلى كارثة، ومن ثم فإن التقدم بالمشروع الإسلامي واجب وضرورة لإنقاذ البشرية، وهذا واجب كل الأمة عموماً، والعلماء منها خصوصاً.

ثانياً: (لاهوت) التحرير الإسلامى

آلة شيطانية ضخمة، تروسها بشر، تقتل الأطفال، تمتص دماء البشر، تعذب المرأة وتظلمها، تجتث جذور الثقافات تنشر المذابح والتطهير العرقي، وحروب الإبادة، والطائفية والعنصرية، الاستعمار، النازية، الفاشية، العنف، القهر، تدمير القيم، نهب ثروات الشعوب والأفراد بلا رحمة وبلا هوادة، وفى كل يوم جديد يزداد جشع تلك الآلة الشيطانية، حتى أنها بدأت تأكل نفسها وتنفصل حتى عن أطارها الاجتماعي، لتصبح هي ذاتها مستقلة عمن صنعوها وخطراً عليهم أيضاً.

هذه الآلة الشيطانية هى بالتحديد النتيجة الحتمية للصعود الغربي، بدءاً من الكشوف الجغرافية والاستعمار وسباق الاعلام وانتهاء بالبورصات العالمية، التي تعمل 24 ساعة في الـ 24 ساعة والخبراء والحاسبات الضخمة والأقمار الصناعية والبث المباشر، البنك الدولي والجات وصندوق النقد الدولي ومجلس الأمن وقوات حفظ السلام الدولية! وأخيراً الشركات العابرة للقوميات، والتي أصبحت ميزانية واحدة منها أكبر من ميزانية دول، وميزانيتها مجتمعة أكبر من ميزانية الولايات

المتحدة الأمريكية نفسها، أنه عصر الفوضى واللاثقافة واللاحضارة.

وضحايا هذه الآلة الشيطانية بالملايين، بل ألوف الملايين، شعوب كاملة، أطفال، نساء، رجال، حضارات، ثقافات، فقر، جهل مرض، مدن الصفيح وإنسان بلا جذور، تخريب منظم للهياكل الاقتصادية والاجتماعية، وناس بلا مستقبل وبلا حاضر أيضاً.

شعوب كاملة، أطفال، نساء، رجال، حضارات، ثقافات، فقر، جهل مرض، مدن الصفيح وإنسان بلا جذور، تخريب منظم للهياكل الاقتصادية والاجتماعية، وناس بلا مستقبل وبلا حاضر أيضاً

هل نقول إن هذه الآلة الشيطانية هي المنظومة الحضارية الغربية،على أساس أن تلك المنظومة الحضارية الغربية، هي التي أفرزت تلك الآلة الشيطانية.. نعم..، ولكن أيضاً لا، لأن تلك الآلة أصبحت نفسها أكبر من تلك المنظومة واستقلت عنها.

وليس هناك من حل بالطبع سوى تدمير هذه الآلة الشيطانية – الثورة –، ثورة المحرومين والفقراء والمهمشين والمقهورين في كل مكان، ثورة تضم كل ضحايا هذه الآلة، الأفارقة، السود، الشعوب المطحونة في آسيا وأمريكا اللاتينية، ضحايا تلك الآلة داخل الغرب نفسه كالمرأة مثلاً، المرأة الغربية التي دفعت ثمن الشذوذ والإباحية، وتعاني آلاماً مبرحة من مجتمع بلا قيم ولا ضمير، وعلينا الآن أن نحدد طبيعة هذه الآلة الشيطانية، وكذا جذورها والمنظومة الاجتماعية التي أفرزتها، وكذلك تطوراتها حتى وصلت إلى حالتها الراهنة البشعة.

وإذا كان من المفيد أن نبدأ بشيء، فهو المنظومة الاجتماعية والحضارية التي أفرزت تلك الآلة الشيطانية، وهي المنظومة الحضارية الغربية التي أعطت تلك الآلة سماتها الثابتة والمتغيرة أيضاً، والحضارة الغربية حضارة تقوم على الوثنية والعنف والقهر، ولا يمكن فهم هذه الحضارة ولا ميكانيزمات عملها بعيداً عن سمات العنف والقهر والوثنية، الحضارة الغربية هي حضارة إغريقية هيلينية في جوهرها، أما المسيحية فلم تكن إلا قشرة خارجية لتلك الحضارة، ذلك أن المسيحية تحولت إلى دين إغريقي وثني داخل الغرب، ولم يتحول هذا الغرب الى المسيحية، وعلينا أن ندرك في هذا الصدد أن المسيحية دخلت إلى الغرب عن طريق إمبراطور آمن بها وفهمها على طريقته الإغريقية، ثم فرضها على شعبه فرضاً، ثم تبنت ممالك هذه

الديانة وأكرهت الآخرين على اعتناقها، وإلا تعرضوا للذبح، وليس التنصير الوحشي للساكسونيين على يد القديس يونيفاس، إلا مجرد نموذج ينطبق على كل الحالات تقريباً، وهكذا تحولت المسيحية إلى ديانة إغريقية، وبدلاً من التسامح المسيحي، أصبح العنف جزء أصيل من المسيحية الغربية.

مع الصعود الغربي إبان ما يسمى بعصر النهضة الأوروبية، تم بعث الثقافة الإغريقية والهيلينية، وتم بعث الدول والفكرة القومية، وظهرت البروتستانتينية لتلائم قيم العقلانية والتنوير والنفعية، وأصبحت ديانة جوهرها الاقتصاد السياسي وبدأت مرحلة الاستعمار، حيث تسابقت الدول الأوروبية على استعمار العالم، من خلال إبادة شعوب أمريكا وأستراليا، ومن خلال نهب ثروات تلك القارات المكتشفة، وكذا نهب ثروات الشعوب في آسيا وأفريقيا، ثم استرقاق سواعد السود لبناء القاعدة الإنتاجية للغرب، ومن هذا التراكم للثروات المنهوبة واستخدم الرقيق تراكمت الأموال، وظهرت بنوك لتمويل عمليات الاسترقاق أو التجارة خلف البحار.

والبروتستانتية، لم تكن إلا تطوراً في المسيحية الإغريقية، واكب مرحلة أخرى من مراحل تطور آلة العنف والقهر الغربي، ولم تكن إصلاحا دينياً، بل كانت وصفة عالمية للنجاح في الأعمال التجارية

وظهرت الثورة الصناعية أو التقدم الصناعي الغربي، والرأسمالية التي أصبحت منذ تلك اللحظة سمة رئيسة من سمات الآلة الشيطانية، ومن سمات الغرب والحضارة الغربية، ويجب أيضاً أن نضع في اعتبارنا أن الرأسمالية أيضاً، أصبحت أداة قاسية ساهمت في المزيد من الاستعمار وفتح الأسواق والنهب والقهر وتطوير الأداة العسكرية للغرب، ومع عام 1914 كان معظم العالم خاضعاً للاستعمار الأوروبي، ولكن كان من الطبيعي أن الآلة الشيطانية لا تكف عن العنف، فبعد أن مارست هذا العنف والنهب على العالم بأسره، مارسته أيضاً مع نفسها، فكانت الحرب العالمية الأولى والثانية.

واستطاعت الآلة الغربية الشيطانية أن تطور نفسها، فكانت مرحلة ما يسمى بتصفية الاستعمار، أو قل مهزلة تصفية الاستعمار، ذلك أنه لم يكن أكثر من تطوير للوسائل في عملية النهب والقهر الغربية المستمرة.

◄

ويعبر المفكر الفرنسي ك موريل عن ذلك قائلاً: «**أن أروع ما حققه الاستعمار هو مهزلة تصفية الاستعمار، لقد انتقل الرجل الأبيض إلى الكواليس، لكنه لا يزال مخرج العرض المسرحي**».

وبدلاً من العسكر والتجار والمبشرين، أصبحت هناك حكومات وطنية تقوم بمهمة القهر نيابة عن عسكر الغرب، وتقوم أيضاً بالوكالة في تسهيل عملية النهب، أصبح هناك جيش وطني وشرطة وطنية، مهمتهما الوحيدة القمع والقهر، وأصبح هناك وكلاء تجاريون يمررون عملية النهب، وأصبح هناك مثقفون مغتربون يساهمون في اجتثاث جذور الثقافة الوطنية، وترويض الانسان المحلي وتنويمه دائماً.

تطورت آلة النهب والقهر، فأصبحت عبارة عن خبراء وبورصات عالمية تعمل ليلاً ونهاراً، أقمار صناعية ومحطات بث مستمرة لاجتثاث الثقافات، مجلس أمن وقبعات زرقاء شركات عابرة للجنسيات، شعارات ومبادىء تسهل عملية النهب المنظم وتزيده قوة مثل حرية التجارة، حقوق الانسان، التنمية التصنيع ، التنوير... إلخ.

القروض والمنح التى تمنح للمنهوبين من وقت لآخر، ليست إلا وسيلة لتنظيف أنابيب النهب وزيادة كفاءتها، والمزيد من بناء وتشييد محطات لرفع الثروات المنهوبة

والأمر الآن أشبه بمركز كبير للنهب، تمتد منه شبكة ضخمة من الأنابيب إلى كل مكان على وجه الأرض، انه وحش مفترس يمد خراطيمه في كل اتجاه، يمتص دماء الآخرين ويتغذى على خلاياهم العصبية، ويحولهم الى حالة غير مسبوقة من البؤس، وهناك آلات رفع ضخمة تساهم فى سرعة تدفق الثروات المنهوبة، من مثل البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، والبورصات، وحرية التجارة، المؤتمرات العالمية فى مجلس الأمن... إلخ، وحتى القروض والمنح التي تمنح للمنهوبين من وقت لآخر، ليست إلا وسيلة لتنظيف أنابيب النهب وزيادة كفاءتها، والمزيد من بناء وتشييد محطات لرفع الثروات المنهوبة، والقضاء على أيَّ نتوءات اقتصادية أو ثقافية أو هياكل اجتماعية، من شأنها عرقلة أو إبطاء عملية النهب.

وفي كل يوم يزداد الوحش جشعاً ويزيد جوعه، وفي كل يوم تتطور الآلة، آلة النهب والقهر الوحشية وتزداد شراهة، ويزداد الضحايا كماً ونوعاً بالتالي، وآخر التطورات في هذا الصدد هو الشركات العابرة للجنسيات، وبدلاً من أن تقوم بالمهمة دول قومية، هولندا ثم انجلترا ثم الولايات المتحدة مثلاً، أصبحت الفكرة القومية وسيادة الدول ذاتها في مهب الريح، وإذا كانت تلك الشركات العابرة للجنسية اليوم، هي

القوة الاقتصادية الحقيقية في العالم، فرأس المال العابر، هو الذي يدفع الحكومات والنظم الغربية لاحداث موجات من التوسع لنزع الفائض الاقتصادي عن مجتمعات الاطراف، وهكذا فنحن إزاء تطور جديد لشكل وطبيعة النهب، سيؤدي بالضرورة الى قيام علاقات جديدة واقتصاد سياسي جديد، ومزيد من الضحايا الذي لن يفلت منه هذه المرة حتى الغرب ذاته، فالأمر أصبح أكبر من الدول القومية، وحتى من قارة بأكملها..، أن الوحش أصبح غير خاضع لأحد، ولم يعد له مروضون أو مسيطرون...، أنه المزيد من البؤس.. والفوضى والجنون أيضاً.

إن أحد علامات هذه الفوضى هو تنميط الإنسان وفقاً لثقافة واحدة، وإذا كان الغزو الثقافي والبث المباشر وغير المباشر، وسيطرة الغرب على وسائل مهيمنة لنشر ثقافة معينة، كان بهدف اجتثاث جذور الثقافات الأخرى وتحويل الإنسان من خاضع بالقوة للنهب، إلى مدمن لهذا النهب، بمعنى أن يسعى هو نفسه الى الوحش، ويطلب منه ويلح ان يمص دمه، فإن الأمر حتى سوف يتجاوز هذا التصور الى عالم بلا ثقافة ولا حضارة على الإطلاق أو نهاية العالم.. ولكن ينبغي أن يكون نهاية الغرب وحده، وليس نهاية العالم، وهذا يقتضي الثورة لتحطيم الآلة الشيطانية.

على أي حال يجب أن نفكر في معنى العالمية، بما فيها الثقافة، وأن نفكر فيما يروجون له من قيم حضارية واحدة وغيرها، وأن نديم التأمل في معنى أن مراكز البث الإعلامي الغربي تسيطر على صناعة الأخبار والمعلومات والفنون، وبالتالي المشاهد والأذواق والأوامر في إطار أنه تغريب للعالم بالقوة، بهدف قتل واقتلاع جذور الثقافات الأخرى، وأيضاً هو في النهاية معاداة لكل ثقافة، لأنه في عالم ذو ثقافة واحدة، فإنه لا ثقافة على الإطلاق!، أنه عصر القرود والكائنات المنحطة.

سنبحث الآن عن الضحايا من جهة، والمستفيدين من جهة أخرى، من آلة القهر والنهب الشيطانية، مع الأخذ في الاعتبار أن الضحايا يزدادون دائماً كماً ونوعاً، وأن المستفيدين يقلون باستمرار لأن الآلة الشيطانية، تزداد شراهة بمتوالية هندسية، وسنبحث عن الحل أيضاً.. سنبحث عن العدل المفقود وهو بحث الإنسان الدائم.

وسنبدأ بسؤال ساذج وهو هل يمكن إقناع المستفيدين بالكف، عن النهب والقهر، هل يمكن إيقاف عمل الآلة الشيطانية عن طريق الإقناع، أي هل يمكن تحقيق عدل شامل أو حتى جزئي عن الطريق السلمي، والاجابة الوحيدة هي لا.. لأن طبيعة الآلة وجوهرها عدواني، قهري، نهبي، ومن العبث طبعاً إقناع الوحش بالكف عن

امتصاص الدماء.

إذن لا طريق إلا الثورة، ولكن ما هي أيديولوجية تلك الثورة، والى أي جذر اجتماعي وثقافي تستند، ومن هم جنودها؟!، وهذا سؤال سوف نجيب عليه بعد فرز المعسكران، معسكر الاستكبار، وكهنة الآلة الشيطانية، ومعسكر الضحايا وبالتالي جنود الثورة.

أن الضحايا يزدادون دائماً كماً ونوعاً، وأن المستفيدين يقلون باستمرار لأن الآلة الشيطانية، تزداد شراهة بمتوالية هندسية

وسنبدأ في دراسة معسكر الاستكبار والمستفيدين، وسوف نستطرد قليلاً باتجاه الماضي... في بداية الاستعمار، كان من الممكن أن نجد في المستفيدين دول قومية، أو حتى طبقات اجتماعية فقط داخل هذه الدول الاستعمارية، التجار، البرجوازية الصناعية، العسكر، المبشرين...الخ، أما الآن ومع التطور الهائل للآلة الشيطانية مع الشركات العابرة للجنسيات ومع ازدياد شراهة آلة النهب والقهر، لم يعد هناك سوى كبار رجال المال وأصحاب الشركات العابرة للجنسيات والجنرالات الكبار وأصحاب البنوك الكبرى وشبكات البث، وعلى مستوى أقل الخبراء، المثقفين المغتربين الذين يبيعون كلماتهم، لقاء شيء من دماء الفريسة والمرتبطين بالترويج للآلة الشيطانية، الوكلاء التجاريون والحكام المحليين في العالم المستضعف، الذين يشاركون فى ذبح شعوبهم ونهبهم لقاء ثمن كبير أو صغير.

بيد أن معسكر الضحايا هم كل الشعوب المقهورة والمنهوبة في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وهم أيضاً المرأة فى الغرب التى حولتها الآلة الى سلعة تجارية، والتي اتعسها السياق الاجتماعي الغربي الذي يسمح بالشذوذ، فمثلاً لو كان هناك (30%) من هذه المجتمعات شواذ، وهؤلاء يستهلكون مثلهم في أشباع شذوذهم، فماذا يبقى للمرأة الغربية سوى العنوسة والحرمان، ثم لماذا تتحمل المرأة مثلاً عبء الجنين غير الشرعي وحدها، وحتى لو كان هناك حديث عن إجهاض آمن...، ليس هناك طبعاً إجهاض آمن لأنها عملية جراحية في النهاية لها آثارها الصحية مهما كانت الوسائل الصحية متقدمة، أليس هذا دليل على الظلم الواقع على المرأة، لماذا لا تحتفظ بجنينها، ويتحمل الرجل معها أعباء ولادته وتربيته، بدلاً من اجهاضه وقتله، المرأة إذن في الغرب ضمن معسكر الضحايا وضمن جنود

بيد أن معسكر الضحايا هم كل الشعوب المقهورة والمنهوبة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وهم أيضاً المرأة فى الغرب التى حولتها الآلة الى سلعة تجارية

الثورة بالتالي، والطبقة العاملة الغربية وصغار الموظفين والعاطلين أيضاً، والأطفال اللقطاء، كل هؤلاء جنود في الثورة لأنهم ضحايا.

وإذا كان الغرب في مرحلة تاريخية من تطور آلة النهب والقهر، قد نجح في رشوة البروليتاريا وتحييدها،ومن ثَمَّ عن طريق شيء من المكاسب الاقتصادية والاجتماعية، فإن استمرار تطور الآلة وزيادة جشعها ونهمها اللانهائي، سيجعل من المستحيل استمرار تقديم هذه الرشوة، ومن ثم فإن هؤلاء الآن أو غداً سيجدون أنفسهم في معسكر الثورة، ويجب الأخذ في الاعتبار هنا، تزايد معدلات البطالة والتخلص من العمالة باستمرار في الغرب، وهذا أمر مرشح للاتساع والتفاقم.

بقي علينا أن نبحث في أيديولوجية تلك الثورة، وينبغي في البدء أن نقرر حقيقة لا يمكن الشك فيها، من منظور فلسفي ومن منظور واقعي وتجريبي أيضاً، ذلك أن أيديولوجية أي ثورة، لا يمكن أن تكون مستمدة من الأرضية الاجتماعية والفلسفية نفسها بل والمعرفية، التي أنشأت الأوضاع التي سوف نثور عليها، ولعل هذا بالتحديد كان السبب في فشل تجربتين ثوريتين، هما التجربة الاشتراكية الماركسية، ولاهوت التحرير المسيحى في أميركا اللاتينية، ولاشك الآن ومن منطلق تجريبي ومعرفي، إن ثورة تستند في أساسها الأيديولوجي والثقافي على ثقافة أفرزت الحالة التى ينبغى الثورة عليها هي ثورة زائفة، بل هي تكريس وتقوية للأوضاع التى يجب الثورة عليها، لابد إذن أن تكون الأيديولوجية الثورية نابعة من سياق ثقافي مخالف، بل وعدائي للأرضية الفلسفية والثقافية، التي أفرزت الحالة والظاهرة التي ترمي إلى الثورة الاطاحة بها.

فالماركسية مثلاً نشأت من قلب الفلسفة الأوروبية، وبالتحديد الألمانية، واستندت في تحليلها الاقتصادي والتاريخي على علوم الاقتصاد السياسي، وعلم التاريخي الغربي والأوروبي بالتحديد، ولذلك فشلت وما كان لها إلا أن تفشل، بل إن فشلها الطبيعي كان دليلاً جديداً على فساد المنظومة الحضارية الغربية برمتها.

يقول المفكر الفرنسي سيرج لاتوش في كتابه تغريب العالم: «ان الاشتراكية كما تحققت في الواقع، ليست سوى شكل خاص مختلف من النظم الرأسمالية والمجتمعات الغربية، فنحن نلقي بكل تأكيد التصنيع مع التمدين، وتحويل الجماهير إلى بروليتاريا، لكن بوجه خاص عبادة الآلة والتقنية والعلم والتقدم واستئناف مشروع الحداثة المتمثل في قهر الطبيعة... إنها ميكانيزمات الرأسمالية نفسها.

◀

ويقول: (الرأسمالية مجرد آلية– طبيعية عند الليبراليين، اصطناعية عند الاشتراكيين، وبالتالي فالرأسمالية هي الليبرالية والاشتراكية معاً، وهي مظهر من مظاهر الخصوصية الغربية للغرب) ويضيف «ان النموذج السوفيتي مثل شكلاً مختلفاً للمشروع الغربي، أكثر مما مثل بديلاً حقيقياً له».

ويقول المفكر الانجليزي أرنولد توينبي(أن المنافسة بين الاتحاد السوفيتي– السابق– والولايات المتحدة الأميركية على زعامة العالم، وبين الشيوعية والمذهب الحر بالتالي على اجتذاب ولاء البشرية، هو موضوع نزاع عائلي داخل أسرة المجتمع الغربي).

وللأسباب نفسها كان من الطبيعي أن تفشل أيضاً مسألة لاهوت التحرير المسيحي في أمريكا اللاتينية، وأن تكون ثورة زائفة أيضاً، لأن جذرها الثوري نبع أيضاً من المنظومة الحضارية الغربية نفسها، ومن الوضع الاجتماعى ذاته الذي كان ينبغي الثورة عليه، فلاهوت التحرير المسيحي في أمريكا اللاتينية ينبع من الكاثوليكية، وهي مسيحية غربية وجزء من المكون الثقافى والحضاري الغربي، تحمل سماته وعيوبه نفسها أيضاً، بل أكثر من هذا فإن الكاثوليكية بالتحديد تتحمل جزء كبير من جريمة استعمار أميركا اللاتينية، وما حدث فيها من إبادة للسكان الأصليين، ثم النهب المستمر فيما بعد لثرواتها وشعوبها، وفي هذا الصدد يقول سمير مرقص في مقال له فى مجلة القاهرة عدد يناير 1994 تحت عنوان «تجربة لاهوت التحرير» كانت الكنيسة الكاثوليكية جزءاً من المشروع الكلي لغزو واستعمار شعوب القارة الجديدة، وقد ساهمت الكنيسة بفاعلية في فرض القانون الاستعماري على المواطنين الأصليين للقارة اللاتينية، ومن المعروف تاريخياً أن البابا الكسندروس السادس، هو الذي قضي بتقسيم القارة الجديدة بين الأسبان والبرتغال.

كانت الكنيسة الكاثوليكية جزءاً من المشروع الكلى لغزو واستعمار شعوب القارة الجديدة، وقد ساهمت الكنيسة بفاعلية فى فرض القانون الاستعمارى على المواطنين الأصليين للقارة اللاتينية

كانت الدودة إذن داخل الثمرة فى كل من الثورة الاشتراكية، ولاهوت التحرير المسيحي في أميركا اللاتينية، لأنها نتجت من الشجرة نفسها، التى كان ينبغي أصلاً قطعها وحرقها، وكان من الطبيعي أن تفسد الثمرة.

وعلينا إذن أن نبحث عن جذر أيديولوجي للثورة العالمية على الآلة الشيطانية، آلة النهب والقهر الغربية خارج شجرة الحضارة الغربية.

ينبغي إذن أن تنتمي الى ثقافة مغايرة، وذات جذر حضاري مختلف، وبما أن جنود الثورة هم كل شعوب آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية، بل والمرأة والعمال، والعاطلون وصغار الموظفين في أوروبا وأمريكا، فإن أيديولوجية الثورة ينبغي أن تستند الى حضارة ذات قيم عالمية، ولاشك أن الإسلام هو وحده الذي يمتلك كل هذه الخصائص، التي ترشحه لأن يكون جذراً ثقافياً لتلك الثورة، فالحضارة الاسلامية حضارة عالمية بكل المقاييس، فمن ناحية الخطاب الإسلامي لم يكن موجهاً إلى منطقة جغرافية أو عرق بشرى معين، بل للعالم كله، «**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**»، ومن ناحية أخرى فإن الحضارة الاسلامية ساهم فيها الأسود، والأصفر والأبيض والأحمر، الافريقي والآسيوي والأوروبي، التركي والهندي والعربي والفارسي...الخ، وإذا كانت التجربة قد أثبتت أن تلك الحضارة استوعبت مساهمات الجميع، فكانت عالمية بالتجربة، وأن خطابها عالمي في أصله، فإنها وحدها القادرة مرة أخرى على احتضان الثورة العالمية الجديدة وأن تكون جذراً أيديولوجياً لها.

وعلينا إذن أن نبحث عن جذر أيديولوجي للثورة العالمية على الآلة الشيطانية، آلة النهب والقهر الغربية خارج شجرة الحضارة الغربية.

وكذلك فإن الحضارة الإسلامية – وانطلاقاً من الإسلام – لم تحاول إكراه أحد على اعتناق الدين الإسلامي «لا إكراه فى الدين»...، ومن هنا نجد أنه مازال في العالم الاسلامي أقليات مسيحية ويهودية... إلخ، بل نجد أن تلك الأقليات ومن خلال جو التسامح اندمجت في الحضارة الاسلامية من دون أن تدخل الإسلام، مما يدل على أن الإسلام، وهو دين رباني – يمكن أن تكون حضارته وثقافته أيديولوجية لغير المسلمين.

نلحظ أن الحضارة الأوروبية غير عالمية، على الرغم من زعمها وترويجها لهذا المصطلح، لأن العالمية تقتضي معاييراً عالمية، ولا يمكن لحضارة أفرزت العنصرية ونهب الآخر، أن تكون عالمية، ولا يمكن لحضارة قامت على استلاب الآخر وقهره، أن تكون عالمية.

وبالإضافة إلى ما سبق فإن الإسلام لم يعرف العنصرية «**كلكم لآدم وآدم من تراب**»، و«لا فرق بين عربي ولا أعجمي ولا أسود ولا أبيض»، وكذلك دعا إلى استثمار البيئة وليس قهرها، ودعا الى العدل والانصاف والحرية، فالجهاد الاسلامي مثلاً كفريضة على المسلمين، يتوجه لإزالة القهر والنهب وإزالة الاستكبار والاستبداد، ومحكوم أيضاً باعتبارات وقيم رفيعة، بحيث لا يكون هناك عدوان إلا على الظالمين

«**قاتلوهم حتى لا تكون فتنة**» فتنة الظلم والنهب، والقهر، «فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين»، فغايات الثورة الإسلامية وبالتالي العالمية، هي القضاء على النهب والقهر والعنصرية والتغريب وتدمير الآلة الشيطانية الغربية، وتحقيق العدل والمساواة واللاعنصرية، بل والمجتمع اللاطبقي واحترام كرامة الإنسان، أليست هذه هي نفس المبادىء الإسلامية.

وكراهية الظلم – بل وجعل الثورة عليه فريضة إسلامية، هي من الأمور المعلومة من الإسلام تماماً، وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والوالدان»، وفي الحديث القدسي... وانتقمن ممن رأى مظلوماً فقدر أن ينصره فلم يفعل»، أي أن رؤية الظلم ولو على الآخرين وعدم الثورة على الظالم إنصافاً للمظلوم، أمر يستوجب انتقام الله تعالى وغضبه.

ويقول الرسول ﷺ «لا يقفن أحدكم موقفاً يقتل فيه رجل ظلماً، فإن اللعنة تتنزل على من حضر حين لم يرفعوا عنه، ولا يقفن أحدكم موقفاً يضرب فيه رجل ظلماً، فإن اللعنة تتنزل على من حضره حين لم يرفعوا عنه».

وفي إطار الآداب والقيم المعروفة للثورة والجهاد الاسلامي، «إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم».

والتراث الإسلامي نصوصاً وحضارةً غنى بالدعوة إلى الثورة على الظالمين، وفق قيم وآداب رفيعة تحول بين الخلط بين الثورة والفتنة والبغي، وتحدد هدف الثورة «الظالمين»، ولاشك أن آلة النهب والقهر الغربي، وهؤلاء المستفيدين بها ظالمون جائرون، لهم ضحايا ومظلومين بالملايين.

والأمر يستحق الثورة وحتى في أطار انصاف الفقراء والمحرومين، وتحقيق العدل الاجتماعي، فإن التراث الاسلامي غني بالنصوص والمواقف والرؤى والمناهج التي تجعل منه جذراً ثقافياً، لأيديولوجية الثورة العالمية ثورة الفقراء والمطحونين والمحرومين، «**ليس منا من بات شبعان وجاره جائع**»، والجار هنا قد يكون فرد أو أسرة أو دولة أو قارة أو حتى كوكب»، من كان عنده فضل ظهر، فليعد به على من لا ظهر له، من كان عنده فضل مال... أو فضل زاد أو ملبس...إلخ، فليعد به على من لا مال له...إلخ، وهي دعوة لتحقيق المجتمع اللاطبقي، ودعوة أيضاً للثورة على هؤلاء الذين يمنعون مازاد عن حاجتهم في حين يحتاج إليها الآخرون.

والامام علي بن أبي طالب ﷺ يقول: «**ما متع غنى الا بما حرم منه فقير**» أي أن تراكم المتعة والغنى والمال، يأتي من سرقة حقوق الفقراء، سواء بسوء توزيع الثروة المتاحة– السرقة من المنبع - أو بأكل فائض قيمة عمل هؤلاء الفقراء، بإعطائهم أقل من حقهم فى عملهم وكدحهم، أو بتعطيلهم عن العمل أو الفساد أو الرشوة...إلخ.

وأخيراً فأن من شذرات الثورة على الظلم والحرمان قول أبي ذر الغفاري ﷺ: «عجبت لمن لا يجد قوت يومه كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه»، وهو يؤكد هنا وجوب ومشروعية ثورة الفقراء والمحرومين، وهكذا فالإسلام من حيث عالميته، ومن حيث كونه ثقافة مغايرة ومعادية للثقافة والحضارة الغربية، وبحكم نصوصه وتراثه الثورى عموماً والدعوة إلى ثورة الفقراء والمحرومين خصوصاً يصلح كجذر أيديولوجي للثورة العالمية المنشودة.

ويبقى هنا أن يضطلع المسلمون بعبء الثورة العالمية كجنود لها، وكطليعة أيضاً لباقي المطحونين والمحرومين في العالم، وأن يضطلع علماء الإسلام بتقديم الإسلام كأيديولوجية للثورة العالمية، والأمر هنا ليس تفضيلاً بلا مبرر للإسلام على غيره، بل لأن الثقافات الأخرى التي نحترمها ولا نريد القضاء عليها، هي ثقافات إما غير ثورية أصلاً، أو أنها غير عالمية، أو أنها غير قادرة من الناحية الفلسفية على مواجهة ناجحة مع الحضارة الغربية، وبالتالي مع آلة النهب والقهر الغربي.

إن الأمر ليس أكثر من قراءة علمية محايدة، قراءة تقول بأن عدة قرون من الظلم والقهر والفقر والنهب والبؤس، على يد الحضارة الغربية وآلتها الشيطانية ينبغي أن تنتهي، ولن يكون ذلك إلا بالثورة العالمية، التي يشارك فيها كل الضحايا وهذه الثورة تحتاج إلى جذر ثقافي وأيديولوجي، لابد أن يكون عالمياً ومعادياً للحضارة الغربية في الوقت نفسها، ويحمل تراثاً ثورياً واضحاً، وليس هناك إلا الاسلام كدين وكحضارة وكأيديولوجية للثورة، الذي يمكنه أن يكون هذا الجذر الثقافي للثورة العالمية المنشودة.